

تمهيد

المبحث الأول

في تدرج التفسير في مرحلتيه

أولاً - مرحلة الرواية :

نزل القرآن الكريم على نبي أمي وقوم أميين لا يملكون من وسائل التعبير إلا ألسنتهم ، ولا من أوعية المعرفة غير قلوبهم ، فلا كتابة ولا كتاب ، ولكنه اللسان الطلق الفصيح ، والقلب الواعي الذكور .

وكانت للعرب وقت نزول القرآن فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم ، وكانت هذه الفنون لا تكاد تتجاوز ضروباً من الوصف ، وأنواعاً من الحكم ، وطائفة من الأخبار والأنساب . وكان كلامهم مشتملاً على الحقيقة والمجاز ، والتصريح والكناية ، والإيجاز والإطناب . . .

وجريا على سنة الله تعالى في إرسال الرسل ، نزل القرآن الكريم بلغة العرب وعلى أساليبهم في كلامهم : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »^(١) فاستعمل القرآن الحقيقة والمجاز ، والتصريح والكناية ، والإيجاز والإطناب ، على نمط العرب في كلامهم ، غير أن القرآن يعلو على غيره من الكلام العربي بمعانيه الرائعة التي افتن في غير مذاهبهم ، ونزع منها إلى غير فنونهم ، تحقيقاً لأعجازه ولكونه : « من لدن حكيم عليم »^(٢) .

وكان طبيعياً أن يفهم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن جملة وتفصيلاً بعد أن تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان : « إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه »^(٣) .

وكان طبيعياً أن يفهم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن جملة بالنسبة لظاهره وأحكامه ، أما فهمه تفصيلاً ومعرفة دقائق باطنه بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة ، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن ، بل لابد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما يشكل عليهم فهمه ، لأنه عليه الصلاة والسلام عليه البيان كما أن عليه البلاغ ، وقد أخبر الله عن ذلك بقوله : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »^(٤) .

(٢) النمل : ٦

(٤) النحل : ٤٤

(١) إبراهيم : ٤

(٣) القيامة : ١٧ - ١٩

ولقد اختلف العلماء في المقدار الذي فسره النبي صلى الله عليه وسلم : فمنهم من ذهب الى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه كل معاني القرآن الكريم كما بين لهم ألفاظه ، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية^(٥) . ومنهم من ذهب الى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبين لأصحابه من معاني القرآن إلا القليل ، وعلى رأس هؤلاء الخويي والسيوطي^(٦) وكل من الفريقين يؤيد ما ذهب إليه بأدلة لا نظيل بذكرها ولا أظنها أدلة مسلمة .

والذي تميل إليه النفس : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الكثير من معاني القرآن لأصحابه كما تشهد بذلك كتب الصحاح ، وأنه لم يبين لهم كل معانيه ، لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه ، ومنه ما يعلمه العلماء ، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ، ومنه ما لا يعذر أحد في جهالته كما صرح بذلك ابن عباس رضي الله عنها فيما يرويه عنه ابن جرير الطبري في تفسيره (ج ١ ص ٢٥) قال : « التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعرفه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله » .

وبدهى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفسر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب ، لأن القرآن نزل بلغتهم ،

(٥) انظر مقالة ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير ص ٥ .
(٦) انظر ما نقله السيوطي عن الخويي في الإتيان ج ٢ ص ١٧٩ وما ارتضاه السيوطي في الإتيان ج ٢ ص ٢٧٩ .

ولم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام الى معرفته ، وهو الذى لا يعذر أحد بجهله ، لأنه لا يخفى على أحد ولم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة ، وحقيقة الروح وغير ذلك من كل ما يجرى مجرى الغيوب التى لم يطلع الله عليها نبيه ، وانما فسر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض المغيبات التى أخفاها عنهم وأطلعها عليها وأمره ببيانها لهم ، وفسر لهم أيضا كثيرا مما يندرج تحت القسم الثالث ، وهو ما يعلمه العلماء ويرجع الى اجتهادهم ، كبيان المجمال ، وتخصيص العام ، وتقيد المطلق .. وما الى ذلك من كل ما خفى معناه والتبس المراد به .

وإذن فبعض ما يروى عن الصحابة فى التفسير مأخوذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعضه - وهو ما لم يتيسر لهم أخذه عنه وكان بحاجة إلى نظر واجتهاد - قالوا فيه برأيهم ، وأعملوا فيه نظرهم واجتهادهم ، مستعينين فى ذلك بما يعرفونه من أوضاع اللغة وأسرارها ، وعادات العرب وتقاليدها ، والحوادث التى نزلت بعض الآيات بشأنها ، وأحوال أهل الكتاب الذين كانوا فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن الكريم ، ثم بقوة الفهم وسعة الإدراك كما قال على رضى الله عنه - لما سئل : هل عندكم شيء من الوحي إلا ما فى كتاب الله ؟ - « لا والذى فلن الحبة وبرأ النسمة ، ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن ... » (٧) .

ولقد اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل ، قالوا فى القرآن بما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة أو

(٧) البخارى ، فى باب : الجهاد ج ٤ ص ٦٩ .

بالواسطة ، وبما شاهدوه من أسباب النزول ، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأي والاجتهاد ، كعلى ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب .

ثم جاء عصر التابعين ، فكان منهم من تصدى لتفسير القرآن الكريم ، فروى ما تجمع لديه من ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصحابة ، وزاد على ذلك برأيه واجتهاده بمقدار ما زاد من الغموض الذى كان يتزايد كلما بعد الناس عن عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة .

ثم جاءت الطبقة التى تلى التابعين وروت عنهم ما قالوه فى التفسير ، وزادوا عليه - أيضا - برأيهم واجتهادهم بمقدار ما زاد من غموض . وهكذا ظل التفسير يتزايد طبقة بعد طبقة ، وتروى الطبقة التالية ما كان عند الطبقات التى سبقتها ، إلى أن جاءت مرحلة التدوين .

ثانياً - مرحلة التدوين :

وتبدأ هذه المرحلة من نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى ، وفيها خطا التفسير خطوات متعددة ، لكل منها سماتها ومميزاتها : فأول خطوة بدأت : كانت مع ابتداء التدوين لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أبواب الحديث متنوعة ، وكان التفسير بابا من هذه الأبواب ، ولم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة ، وآية آية ، بل وجد من العلماء من طوف فى الأمصار المختلفة ليجمع الحديث ، فجمع بجوار ذلك ما روى فى

الأمصار من تفسير منسوب الى النبي صلى الله عليه وسلم ، أو الى الصحابة ، أو الى التابعين . ومن هؤلاء : يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هـ وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هـ . . . وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث ، وكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث ، ولم يكن جمعاً للتفسير على أنه علم مستقل قائم بذاته .

ثم جاءت الخطوة الثانية : وفيها انفصل التفسير عن الحديث وأصبح علماً قائماً بنفسه ، فوضع التفسير لكل آية من القرآن ، ورتب ذلك على حسب ترتيب المصحف ، وتم هذا العمل على أيدي جماعة من العلماء منهم : ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وابن أبي حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هـ . . . وكل هذه التفاسير مروية بالاسناد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وليس فيها شيء يذكر في التفسير أكثر من التفسير المأثور اللهم إلا ابن جرير الطبرى فانه ذكر الأقوال ، ثم وجهها ورجح بعضها على بعض ، وزاد على ذلك الاعراب إن دعت اليه حاجة ، واستنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من النص القرآني .

ثم جاءت الخطوة الثالثة : وفيها لم يخرج التفسير عن حدود التفسير بالمأثور ، ولكنه خرج عن طابعه المؤلف من قبل ، وهو تدوين المأثورات بأسانيدھا ، فوجدنا من العلماء من اختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون

أن يسندوها لقائلها ، فدخل الوضع في التفسير ، والتبس الصحيح بالعليل ، وكان هذا مبدأ ظهور الوضع في التفسير وتطرق الروايات الاسرائيلية اليه .

ثم جاءت الخطوة الرابعة : وهي أوسع الخطأ وأفسحها . . . امتدت من العصر العباسي إلى يومنا الحاضر . . . فبعد أن كان التفسير مقصوراً على رواية ما نقل عن سلف هذه الأمة ، وجدناه يتجاوز بهذه الخطوة إلى تدوين تفاسير اختلط فيها الفهم العقلي بالتفسير النقلى ، وكان ذلك على تدرج ملحوظ ، فقد بدأ أولاً على هيئة محاولات فهم شخصى وترجيح بعض الأقوال على بعض ، وكان هذا أمراً مقبولاً ما دام يرجع الجانب العقلى منه إلى حدود اللغة ، ودلالة الكلمات القرآنية . . . ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصى تزداد وتتضخم متأثرة بالمعارف المختلفة ، والعلوم المتنوعة ، والآراء المتشعبة ، والعقائد المتباينة ، حتى وجد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة ، لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم .

دونت علوم اللغة ، ودون النحو والصرف ، وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة ، وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهي والعقدى ، ودون فيها من الكتب ما شاء الله أن يدون ، وظهر التعصب المذهبي قائماً على قدمه وساقه في العصر العباسي ، وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة لها . . . وكان من نتيجة ذلك كله ، أن امتزجت كل هذه العلوم وما يتعلق بها من أبحاث بالتفسير حتى طغت عليه ، وغلب الجانب العقلى على الجانب النقلى ، وصار أظهر شيء في هذه الكتب هو الناحية

العقلية ، وان كانت لا تخلو مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول ، أو بغير ذلك من المأثور ، كما كان من نتيجته - أيضا - لحكم المعتقدات المذهبية في عبارات القرآن تحكما كثيرا ما يخرج بالنص القرآني عن معناه المراد . . وأخيرا وجدنا كل من برع في فن من الفنون يغلب على تفسيره - بصورة واضحة - منه الذي برع فيه : فالنحوي : أكبرهم الاعراب وسرد مسائل النحو وفروعه ، كأبي حيان في تفسيره « البحر المحيط » .

وصاحب العلوم العقلية : جل عنايته بأقوال الحكماء والفلاسفة وذكر شبههم والرد عليها ، كالفخر الرازي في تفسيره « مفاتيح الغيب » .

والفقيه : مبلغ همه واهتمامه مسائل الفقه وتفريعاتها وذكر أدلتها ، كالخصاص وأبي بكر بن العربي .

وصاحب التاريخ : يكثر من ذكر القصص وأخبار من سلف ، وكثيرا ما يخلط الصحيح منها بالأساطير والخرافات ، كما في تفسير الثعلبي والخازن . .

وأصحاب المذاهب الدينية والمواجيد الصوفية : ركزوا في تفاسيرهم على ما يهيمهم من تأييد المذهب أو شطحات التصوف . . وهكذا فسر كل صاحب فن أو مذهب بما يتناسب مع فنه ، أو يشهد لمذهبه . .

ولقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية في كتابة التفسير ، وراجت في بعض العصور رواجاً عظيماً ، كما راجت في عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أهلها من ورائها أن يحملوا آيات القرآن

كل العلوم ما ظهر منها وما لم يظهر ، كأن هذا - فيما يبدو - وجه من وجوه إعجاز القرآن وصلاحيته لأن يتمشى مع الزمن . وفي الحق أن هذا غلومهم ، واسراف يخرج بالقرآن عن مقصده الذى نزل من أجله ، ويحيد به عن هدفه الذى يرمى إليه .

.. هذا ولا يفوتنا أن نذكر أنه قد وجد من العلماء من ضيق دائرة البحث فى التفسير ، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتعددة ، كابن القيم ، الذى أفرد كتابا فى أقسام القرآن ، وأبى عبيدة ، الذى أفرد كتابا فى مجاز القرآن ، والراغب الأصفهاني ، الذى أفرد كتابا فى مفردات القرآن ، وأبى جعفر النحاس ، الذى أفرد كتابا فى الناسخ والمنسوخ من القرآن ، وأبى الحسن الواحدى ، الذى أفرد كتابا فى أسباب نزول القرآن .. وغير ذلك من العلماء الذين قصدوا الى ناحية خاصة من نواحي القرآن وتناولوها بالدراسة والتأليف .
